الهدية

بقلم.. إسلام عبد القادر التركي/ مصر

كان (سعيد عبد المجيد مهران) يصارع من أجل النوم ولكن هيهات أن ينال ساعة واحدة ينام فيها نومةَ هنيئة وطبيعية...

وبعد محاولات مستمرة للنوم باءت بالفشل كالمعتاد بالرغم من تجرعه حبة منومة لكنها لم تؤثر في جسده المنهك والواهن بفعل الزمن الذي ترك أثرًا لا تُخطئه العين، التفكير أصابه بالأرق.

هَم بالنهوض بصعوبة شديدة، حاول عدة مرات ولكن جسده الضعيف لا يستجيب ومع إصراره تمكن من الوقوف على قدميه المرتعشة كي يتقدم عدة خطوات تحسس فيها طريقة بتؤدة وحرص.

المنزل غارق في سكون كَئيب ومُوحشْ وكأنه الإنسان الوحيد على وجه الأرض وبالفعل كان هذا هو شعوره الذي سبب لهُ البؤس والحزن الشديد، الوحدة أصابت تفكيره وأثرت على جسده وزادت من مرضه، أخذ يخطو بصعوبة باتجاه أحد المقاعد بغرفة المعيشة لم ينتبه لموقع قدميه وكَاد من الوقوع مرتين، ولكنه تمالكَ نفسه في اللحظة الأخيرة، مستنجدًا بمقعدٍ مجاور لباب غرفته.

وبالرغم من عدم قدرته على المشي وتعثره مرتين؛ لكنه لم يعر لذلك انتباه، بيدَ أنه كان يفكر بشيءٍ آخر شغل عقله وجميع حواسه.

- نعم أرَ ذلك من نظره عينيه الحائرة والحزينة -

وبالفعل كان نظره معلق بتلك العروس الصغيرة المزينة بفستان أحمر وشعر أصفر لامع وأهداب طويلة سوداء، والتي كانت على ما بدى له تنظر إليه وتبتسم ابتسامه حنونه -كما توهم ذلك- "وكأنه رأى فيها حياته الماضية"

ابتسامه طالما افتقدها منذ زمن، نظر لها بصمت وحزن وبادلها الابتسام، مد يده وكأنه يريد أن يسبق خطوات جسده وصولًا لها.

يتذكر الآن وهو يتجه نحوها كم كلفته من جهد ومشقة كي يقتنيها، منذ شهرين وهو يفكر في كيفية حصوله عليها؛ شيخوخته كانت عائقٍ أمام مُحاولات الخروج.

حاول عدة مرات أن يخرج من منزله الذي أصبح كالقبر المظلم، لكنه كان يفشل دائمًا، وفي النهاية ساعده أحد شباب الحي الذي يقطن به، أخذ بيده حتى وصل إلى مبتغاه، كَي يقف أمام متجر متواضع ومتهالك يعرض في زهد عرائس ودميَ صغيرة مصنوعة من المطاط وملابس أطفال ونماذج لسيارات صغيرة بلاستيكية للأطفال.

وقف بجواره الشاب متعجبًا؛ حين استوقفه أمام المتجر وأخذ يتأمل العرائس المعروضة، وزادت دهشة الشاب؛ حينما لمح طيف ابتسامه نادرة تغزو ثغر" سعيد مهران" وترتسم على شفتيه التي تشققت بفعل الزمن، ابتسامه تَنُم عن غبطة شديدة وسعادة مكبوتة؛ فانفرجت شفتاه عن ثناياه ضاحكًا بدون صوت.

الشاب - وهو جَارُه - يعرفه جيدًا فهو الرجل العجوز عابس الوجه دائمًا، لم يلمح الابتسامة تلوح من ثغره أو ترتسم على ملامحه الحزينة، ولكن أسعده؛ رؤيته الآن باسمًا سعيدًا.

طَالما كانوا في الحي يلقبونه "بالعابس"؛ حينما يلمحون طيفه كل أسبوع برفقه أحد جيرانه، متكئ عليه كي يساعده في قضاء حاجته من طعام وخبز وما شابه، وكانت هذه فرصته الوحيدة حتى يرى الخلق والدنيا...عدة خطواتٍ وعدة دقائق كل أسبوع.

- " ما سر سعادتكَ يا عم (سعيد) وأنتَ تُشاهد هذه العروس الصغيرة؟! ما سر إصرارك على الخروج والقدوم إلى هنا، بالرغم من المسافة الطويلة التي تفصلنا عن الحي..! لماذا تَتَكبد عناء الطريق؟! وأنتَ الشيخ المريض؛ لا تقوى حتى على النزول عدة خطوات يسيره كي تقضي حاجتك من الطعام" –

هكذا حدث نفسه متعجبًا؛ فقد كان في حيرة من أمره.

كان يبحث عن جواب، ثُم دنى وأقترب من (سعيد مهران)، هَمس بصوتٍ خفيض قائلًا:

- " عم سعيد...أسمح لي أن أسأل حضرتك..! لماذا استوقفتني هنا؟! بل أرىَ السعادة تتلألأ على ملامح وجهكَ لرؤيتكَ تلك العروس الصغيرة.... عذرًا لِتطفلي.

التفت إليه (سعيد مهران)، والابتسامة مازالت تزين ثغره يشوبها نظرة حزن لاحت من مقلتيه ثم أقترب من الشاب مُحدثًا بصوت خفيض ومرتجف:

"- هل تعلم يا محسن يا ابني...-"

قطع حَديثه فجأة وصَمتَ، كأنه تذكر شيء جعل الدموع تترقرق بداخل عينيه كي يستكمل حديثه بعد أن سيطر على دمعه حاولت الفرار ولكنها لم تنجح...

هَمس بصوتٍ متهدج: -"هل تعلم إنني أحلم بهذا اليوم منذ حوالي أحد عشر عامًا هي أمنيه حياتي، وها هو ذاك اليوم يأتي أخيرًا لكي أراها..."-... الدَمعة التي فشلت في الفرار نجحت وأصبحت دموع حَارة لم يستطع منعُها.

أقترب منه (محسن)... ثُم اِحتضنهُ هَمسًا بعطف – "عم سعيد لا يوجد ما يستحق دموعكَ هذه، بالله عليك كفى... لقد رأيتُ روحكَ تتلألأ، والابتسامة تغزو ملامح وجهكَ من هُنَيهة... الآن ماذا حدث؟! اعتذر لأني تسببت في تذكيركَ بما دفعك للبكاء، فأنا أعرفكَ جيدًا، ولم أركَ تبكي أبدًا أو حتى تبتسم! اليوم فقط تبتسم وتبكي، لمَ كل هذا؟!.-"

- " لا تشغل بالكَ أنَا في أحسن حال وكأنني أسعد إنسان، الآن فقط عَلمتُ معنى

لاسمي(سعيد)؛ الآن فقط أنَا سعيد بالفعل.... سَأبتاع هذه العروس-"

"- أكيد يا عم سعيد... ندخل ونشتريها! ولكن لمن هذه الدمية -"

رَمقه (سعيد مهران) بنظره حَانيه وهَم بالولوج إلى المتجر بدون أن يتفوه بكلمة واحدة.

ابتاعَ الدمية والسعادة تملئ نفسه وكأن حياته وسعادته كانت متوقفة على لحظته هذه، كي يعود إلى منزله، ويضعها أمام ناظريه؛ يتطلع إليها كل يوم انتظارا لليوم الموعود، طالما انتظر هذه اللحظة والتي باتت وشيكة جدًا، كل يوم يمر يُقَربهُ من حلمه الذي راوده لمدة سنوات طوال، وها هي الفرصة تأتي إليه بعد أن عقد العزم وأصر على اتخاذ الخطوة الحاسمة أخيرًا، بعد أن تهيأت له الأسباب والسُبُل، هو الآن لا يفكر في شيءٍ غير تحقيق أمنيته هذه.

تَذكَر كل ذلك وهو يخطو نحو المقعد الذي تمكن من الوصول إليه بعد جُهدٍ كبير، ارتمى عليه بإهمال، ثُم التفت إلى الدمية، قائلًا بصوتٍ دافئ وكأنه يُحدثها:- "غدًا أرىَ ولدي الوحيد وابنته حَفيدتي التي اشتقت لِرؤيتها... لم أراها منذ مَولدِها... فمنذ أن تخرج ولدي الوحيد في كلية الطب وأنا أتُوق لرؤيته زوجًا، وتمنيت رؤيه أولاده؛ أحفادي... وها قد جاء اليوم الذي انتظرته منذ سنوات-"

توقف عن مُحادثه نفسه فجأة، وانتفض كأن ثعبان لدغه، التفت ناحية حجرة الطهي قائلًا:

"- نعم حبيبتي...قادم كي اتناول طعام العشاء معكِ...-"

ثُم صَاح بدون وعي

- " علاء أين أنتَ.... تعالى كي نتناول طعام العشاء معًا.

وكالعادة تخيل زوجته التي فارقت الحياة منذ سنوات تنادي عليه كي يتناول الطعام معها، كانت حبيبته وفراقها أدمى قلبه كفراق ولده الوحيد منذ سفره إلى الخارج بعد زواجه مباشرًا، ولم يراه منذ ذاك الحين.

سنوات مرت عليه وحيدًا... وبالصدفة عَلِمَ برجوع ولده الوحيد من الخارج منذُ خمس سنوات؛ ومما أثر فيه أنه لم يفكر في زيارته بعد طول غياب، أو حتى الاتصال به ولو مرة واحدة للاطمئنان عليه... أو يحقق لهُ أمنيته كي يرى حفيدته الصغيرة الوحيدة، وكأنه يَخجل منه وهو الأب الفقير للطبيب المشهور، مَيسور الحال.

ولكن غدًا عيد ميلاد حَفيدته الثامن وهو عَاقِد العزم على الذهاب إليها بعد أن حصل على عنوان منزل ابنه العاق بطريق الصدفة...

ظل مُستيقظًا حتى مشرق الشمس، ثم ارتدى ثيابه في عُجَالة وخرج إلى ميعاده المُنتظر بصُحبه "محسن" الذي وعَده باصطحابه إلى غايته المنشودة.

استوقف (محسن) سيارة أجرة، جلسَ على المقعد الخلفي وبجواره (سعيد)، يَحتضن الدُمية بيد واليد الأخرى تقبض على ورقة صغيرة بها عنوان ولده، لاحظ محسن ذلك، فابتسم وابتهج؛ حينما قال لهُ (سعيد):-" الهدية تلك لِحفيدتي، حبيبتي...وهذا عنوان ابني سَأراهم أخيرًا...-"

كانت السعادة تملأ قلبه، وهو يقترب من منزل ابنه... لكن وعلى حين غِرة، رأىَ (محسن) الورقة الصغيرة تطير في الهواء؛ بعد أن فلتت من يد (سعيد) وحلقت بعيدًا؛ بفعل سرعة السيارة.

التفت (محسن) إليه مُحذرًا: - "عم سعيد الورقة...فَلتت من يدك...-"

لم يَسمعه (سعيد مهران) ولن يسمعه أبدًا؛ رَوحهُ حَلقت بعيدًا خلف الورقة، وأسْلم الروح لخالقهُ وعلى وجهه ابتسامة متلألئة، مُحتضنًا العروس هديته الوحيدة لحفيدته التي كان ينتظرها منذ سنوات.

كانت صَدمة (محسن) شديدة، ولكنه أصرَ على تحقيق ما كان يصبو لهُ ويحلم بهِ؛ وهو تَسليم الهدية إلى حفيدته، بعد أن لمح العنوان قبل أن يذهب أدراج الرياح.... وصل إلى المنزل فاستوقف سائق السيارة الذي أذهلهُ ما حدث؛ فحوقل وبَسمل وترحم على روح (سعيد).

تَرجلَ (محسن) في عُجَالةٍ مُصطحِبًا الدُمية صَعدٍ إلى منزل (علاء)... وما هي إلا دقائق معدودة، هَبطَ خِلاّلها وفي إثرُهُ (علاء)... اقترب من باب السيارة، ففَتحهُ كي يَجدَ والده وكأنه يَبتسم لهُ، دنى منهُ... ودموع الندم تُدمي قلبه ثم لَثمَ يدَهُ، قائلًا بصوتٍ مرتجف:- "سَامحني يا أبي..."

قطع حَديثه (محسن) صَائحًا في وجهه: -" لن يُفيدكَ الندم الآن... وللأسف ربما مات وهو راضي عنكَ بالرغم من قسوتكَ وعقوقكَ له! ولكن هناك عِقاب سَتنالهُ عاجلًا أم أجلًا..."

انتبه لما قالهُ (محسن) فمَادَت به الأرض ندمًا؛ تذكر شقَاء أبيه، وكم ضحى من أجله كي يكون في أعلى المراتب... - "أتمنى أن تكون أحسن؛ أحسن من أبيك" - كما كان يقوله لهُ دائمًا.

"الآن صِرتُ طبيب مَرموق، وأمسيتُ أحسن الناس، ولكنني خَسرتُ أعز الناس... لن أغفر لِنفسي أبدًا."

وبِباب المنزل وقفت حَفيده (سعيد مهران) وهي تَحتضن الدُّمية" هدية جِدها الوحيدة!"- ووجْهُهَا مُتلألأ بابتسامة بريئة ونظرة اندهاش تَحولت سريعًا إلى نظره حزن.

" وبقدر سنوات حزنه مات سعيدًا مبتسمًا "

مات عَم سعيد " وهو سعيد بالفعل.. كما لم يَعش من قبل "

" حَاسب نفسكَ قبل فوات الأوان...بعدها لن يُفيدكَ الندم "